مجلة
مركز الوثائق والدراسات الإنسانية

داخل العدد

* المدينة الخليجية : إشكالية الأصالة والمعاصرة في التخطيط والعمارة .
حسن عليوي الخياط
* التعليم في قطر في مرحلة تحول (١٩٥٤ ـ ١٩٦٤م) .
يوسف إبراهيم العبد الله
* الادعاءات الإيرانية في جزر أبو موسى والطنبين
(تحليل تاريخي ـ سياسي لاطروحة بيروز مجتهد زاده) .
أحمد زكريا الشلق
* التباين الإقليمي في المملكة العربية السعودية (تحليل للبيئة العاملية) .
أحمد جار الله الجار الله
عطية محمد الضيوفي

العـدد العاشـر السنة العاشرة ١٩٩٨م

جامعة قطر

الدوحة ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م

المدينة الخليجية :
إشكالية الأصالة والمعاصرة في التخطيط والعمارة

أ.د. حسن الخياط

قسم الجغرافيا

مقدمـــة :

إن دراسة المدينة العربية الخليجية من حيث أنماط تخطيطها وعمرانها وطرز عمارتها وأساليب حياة مجتمعها ونماذج ثقافتها تثير إشكالية كثر الحديث عنها والحوار الساخن حولها بين المثقفين العرب والمسلمين ، ألا وهي «إشكالية الأصالة والمعاصرة» .

فالأصالة هي الحصاد الحضاري لتراث المجتمع ثقافياً وعمرانياً ومعمارياً على مدى التاريخ ، وأنها تنطوي ، في رأي الكثيرين ، على الارتباط بذات عربية - إسلامية ذات موقف حضاري متميز . أما المعاصرة فهي النتيجة الحتمية للتفاعلات المستمرة للمقومات الحضارية للمجتمع [١] ، وأن تيارها تيار عصري يتجه إلى الحاضر والمستقبل وحدهما ، ويتبنى بالكامل قيماً وأساليب مستوردة تتعارض ، في غالب الأحيان ، مع المواقف والاتجاهات التراثية التقليدية الأصيلة ، وتتنكر لعناصر التخطيط والعمارة والثقافة التي نمت محلياً عبر التاريخ . وعلى هذا الأساس فإن حالة الخيار في إشكالية الأصالة والمعاصرة هي بين النماذج التراثية المحلية العربية - الإسلامية وبين النماذج الخارجية المعاصرة .

وينطلق الاهتمام بدراسة «الأصالة والمعاصرة» في المدينة الخليجية من الإحساس في أن للحضرية[٢] ومعطياتها المادية من الشواهد والشواخص والرموز آثاراً عميقة في توجيه حياة إنسان المنطقة وأنماط عمارته وعمرانه . فالإنسان ، كما يدلل سلوكه وخبراته ، في تفاعل دائم مع بيئتيه ، الطبيعية والحضارية ، وأنه كثيرٌ ما يقع تحت تأثيرهما أو أيٍ منهما من حيث يشعر أو لا يشعر . وقد تفهم الغرباء من مستعمرين وصهاينة ومستشرقين أبعاد تلك الحقيقة ورأوا فيها وسيلتهم الناجحة للتأثير في شعوب المناطق العربية - الإسلامية وجعلها تشكك في قواعد وركائز حضارتها وتراثها وتاريخها

ومادياتها التراثية. ولهذا حاولوا وخططوا لإجتثاث القيم والأنماط التقليدية الأصيلة عند إنسان هذه المناطق واستبدالها بصيغ غريبة دخيلة لايربطها بها أي رابط تراثي أو تاريخي أو حضاري أو حتى بيئي . ولأن مثل هذا التيار الجديد المعاصر من الشدة والشيوع، فإن أفراداً نافذين، وآخرين مسؤولين ، في المجتمع العربي ، وبخاصة الخليجي ، أخذوا هم أنفسهم يشاركون في الاستخفاف بمنجزات التخطيط والعمارة التراثية التقليدية الأصيلة ويشوهون صورها ومدلولاتها . وقد تحقق لهم ذلك في كثير من الجوانب الحياتية والعمرانية .

وقد كان لنتائج هذا السباق أو الصراع بين الأصالة والمعاصرة أن برزت خيارات انتقائية أو تيارات توفيقية حاولت الجمع بين الاتجاهين والأخذ بأفضل ما في النموذجين والتوفيق بينهما في صيغة متطورة واحدة تتوافر لها الأصالة والمعاصرة معاً [٣]. إنه موقف يتبنى التحديث في المدينة الخليجية ومجتمعها في إطار من القيم الروحية والمادية المنحدرة من الماضي . فهناك توجه نحو الحفاظ على التراث والأخذ منه ومن قيمه . كما أن هناك ضرورة إلى السير مع العصر واستيعابه وإيجاد بنية حضارية عربية إسلامية حديثة في آن واحد . فالأصالة ليست هي الانحصار في التراث وحده ، والعبودية له ، وليست التقوقع والتجمد عند الماضي ، ولكنها تبني قيمة وتخلق التجديد الدائم فيه . كما أن المعاصرة ليست في تبني القيم الغربية والتخلي عن الماضي كله ، وليست تجديداً محضاً وتبنياً لمعطيات الغرب وذوباناً فيه ، واغتراباً عن الدين والمنزع القومي ، ولكنها إدخال للعصر في الذات العربية - الإسلامية ، وفهم له من خلالها .

ولهذا ، فإن الأصالة والمعاصرة ، كما يرى أصحاب هذا الرأي ، لا تتناقضان إطلاقاً ، ولعلهما متكاملتان ، والفرق الوحيد بينهما ، كما يرون ، أن الأصالة تثبت الذاتية الخاصة، بينما المعاصرة تفرض الاتجاه [٤].

أولاً . الأصالة في المستوطنات الخليجية التقليدية

الصحراء والبحر والمجتمع والقبلية والإنتماء الروحي والقومي والتراث التاريخي هي الركائز البيئية والحضارية للإنسان الخليجي ، وهي ، في ذات الوقت ، قد شكلت أساسياته

في تخطيط مستوطناته البشرية وتكوين مرافقه السكنية والوظيفية . فالتخطيط العمراني وفن العمارة هما وليدا المكان والزمان والحاجة ، وإنهما إجابات لصدى أفكار المجتمع وعاداته وتقاليده ومعتقداته وتراثه التاريخي . فلكل مكان وزمان طابع يميز عمرانه وعمارته ، ولهذا فقد كان البحر والأرض والبيئة الصحراوية المتطرفة في حرارتها وجفافها عناصر أساسية فاعلة في تشكيل واقع المستوطنات البشرية الخليجية ، وكان الإسلام والعروبة ، كحضارة ، موجهين لها . وعلى هذا الأساس كانت المستوطنات الخليجية التقليدية مستوطنات عضوية كل ميدان أو بيت أو شارع أو زقاق أو أي مرفق آخر فيها قد استجاب لمتطلبات وحاجات بيئية أو مجتمعية . ولهذا فإن معظم هذه المستوطنات تتشابه أو تتقارب في أنظمتها والطرز التي تتشكل بها أحياؤها السكنية ومرافقها الخدمية والوظيفية العامة [٥].

ويؤكد الواقع التاريخي للمنطقة العربية الخليجية أن تراثها المعماري تراث عربي- إسلامي ، وأن مستوطناتها البشرية عربية - إسلامية حافظت على نقائها الأصيل وانتشرت داخل أسوارها في مواقع ومواضع استراتيجية فرضها واقعها البيئي والوظيفي . وفي أرجاء هذه المستوطنات يمكن مشاهدة الكثير من الشواهد والشواخص التراثية التي نشأت وتطورت في الفترة ما بين القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين والتي تظهر بأشكالها العمرانية المتنوعة لترمز إلى العمران الديني (المساجد) والعمران المدني (القصور- الدور والبيوت - الأسواق- الساحات والميادين) والعمران العسكري (القلاع - الأبراج - الأسوار- الحصون) [٦]. وقد شبه سابا شبر المستوطنات الخليجية التقليدية بأنها «مبانٍ ضخمة للشقق السكنية ، وأن أسواقها تشبه محلاً تجارياً كبيراً ، وأن شوارعها وممراتها هي شبكة طرقها ، وأن أفنية منازلها هي مراكز النشاط الاجتماعي العائلي ومراكز الاستجمام والصناعة . فيها يتوفر نوع من التوازن بين الإنسان والخالق ، والإنسان والإنسان ، والإنسان والطبيعة ، والإنسان ومتحدياته : البحر والصحراء والحرارة العالية وندرة المياه العذبة وقسوة العواصف الرملية» [٧].

سمات التخطيط والعمارة التقليدية :

لم يقصد المعماري العربي الإسلامي أن يصمم ويبني بحيث يكون لمبناه طابع معماري

معين سبق التحضير له والاتفاق عليه . ولكن هذا المعماري كان يحاول أن يحقق احتياجات قومه وبرامج مجتمعه المادية والمعنوية من خلال ما يسرته له البيئة الطبيعية من خامات ومواد بناء ، وما تلقاه من ثقافة ، وما آمن به من معتقدات دينية وعادات وتقاليد. هذه مجتمعة قد انصهرت في مخيلة أبناء المجتمع فأثارت فيهم إحساساً وشعوراً جمالياً وذوقاً عاماً . وهي ذاتها قد هيأت للمعماري فرصة للتعبير عنها في محاولاته المعمارية الصادقة فقبلها أبناء مجتمعه وارتضوا أشكالها بما تحمله من سمات ومعان إيحائية توافقت وطبائعهم وأخلاقياتهم ، فكان ذلك هو الطابع المعبر والمميز لعمارة هذا المجتمع [٨] .

ويمكن إيجاز خصائص وسمات التخطيط والعمارة التقليدية [٩] بما يأتي :

١ - الزهد واحترام المعايير والذات الإنسانية والابتعاد عن التكلف هي سمة من أهم سمات العمارة التقليدية ، حيث كان يراعى فيها العلاقات الشخصية المستوحاة من قيم الشريعة الإسلامية وتقاليد وعادات الإنسان العربي الخليجي .

٢ - ضيق الأزقة والطرق وتعرجها بحيث يغطيها الظل معظم النهار ويجنبها أشعة الشمس القوية ويكسر عنها حدة الرياح السريعة المتربة ، (شكل ١) .

٣ - كثافة المباني وتلاصقها قد مكنت من تجاور الأسر ضمن ما يسمى بالحي أو الفريج مما زاد في قوة العلاقات الاجتماعية بين هذه الأسر والأفراد . كما أن هذه الكثافة والتلاصق هي سمة مناسبة للبيئة الطبيعية والحضارية ، (شكل ٢) .

٤ - الارتفاعات المنخفضة للمباني حيث تتكون من دور أو دورين في الغالب ، باستثناء المآذن التي تعتبر هي العلامة المميزة . والارتفاع المنخفض يعتبر مناسباً وقريباً من الأبعاد الإنسانية ، علاوة على أنه يشكل علاقة بين الإنسان وبيئته الخارجية .

٥ - سيطرة الأسطح المستوية والجدران الصماء ذات الفتحات الصغيرة والقليلة . والبناء يتسم بالجمال والبساطة والمتانة والراحة .

٦ - الأفنية الداخلية والانفتاح على الداخل هي من الخواص العامة في العمارة الخليجية التي فرضتها ظروف البيئة الطبيعية والحضارية والخصوصية الاجتماعية .

٧ - طغيان اللون الطيني البني الفاتح بسبب استعمال المواد الإنشائية من البيئة نفسها .

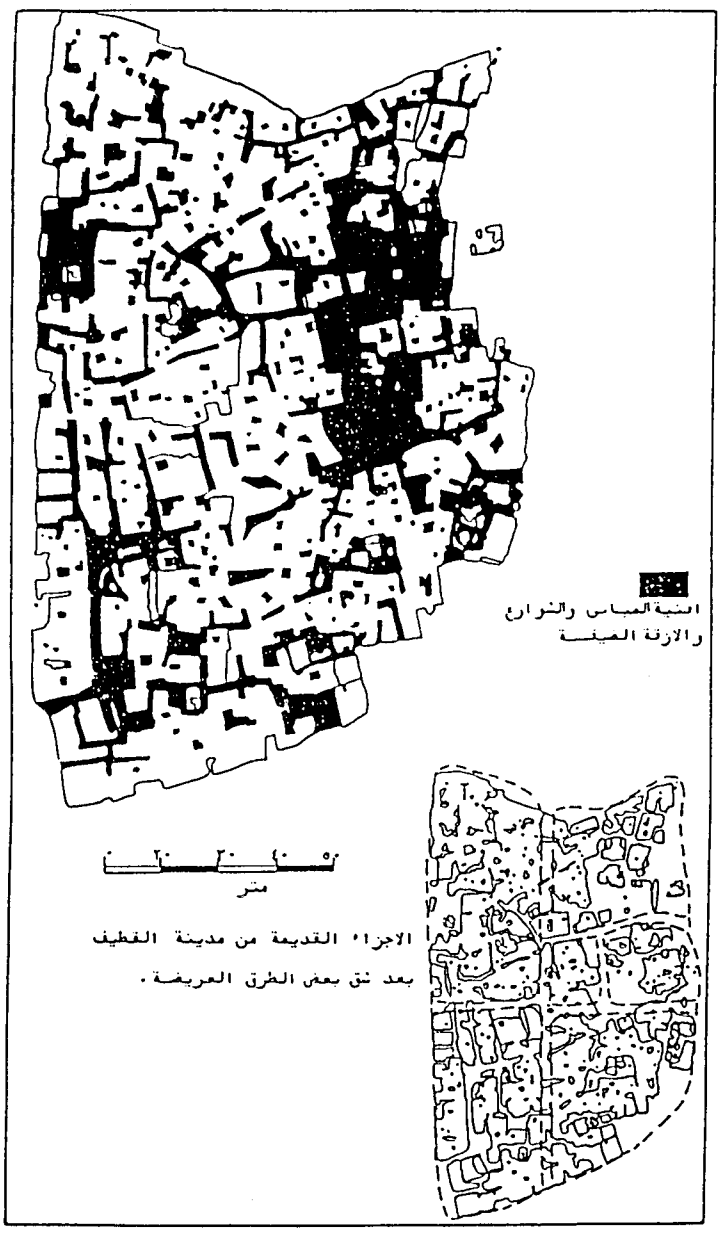

(شكل - ١) الأجزاء القديمة من مدينة القطيف (القلعة)

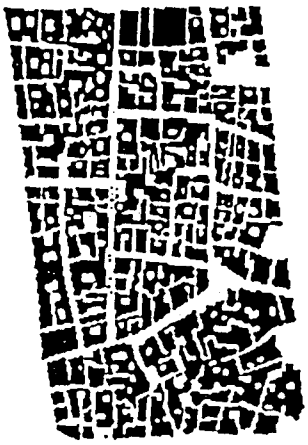

أحد أنماط النمو العمراني التقليدية بالرياض

الكتل العمرانية وشبكة الفراغات العامة لمدينة المحرق

حي الرفعة، الأحساء

النمط التخطيطي في المدينة الخليجية التقليدية

(شكل - ٢) النمط التخطيطي في المدينة الخليجية التقليدية

٨ - الأسواق والساحات تحتل مواقع متميزة من المستوطنات التقليدية . فالسوق يحتل الشارع الرئيس ، وتنتشر حول السوق الأزقة الضيقة المتعرجة التي تنسجم مع وسائل النقل المتاحة آنذاك . أما الساحات فتتدرج في مراتبها من الصغيرة إلى الأكبر فالأكبر ، وهي تقوم بخدمة سكان المستوطنات جميعاً ، ولها قدسية لدى هؤلاء السكان حيث تمارس فيها مظاهر الأفراح [١٠] .

٩ - البيت يعتبر أساس العمارة الخليجية ، وأهم عناصره ومكوناته :

- الحوش الداخلي (الفناء) وهو متطلب اجتماعي وديني وبيئي .
- الجدران الخارجية صماء تخلو من النوافذ مع تنويع في المنظر العام .
- الليوان (الرواق) وهو الجزء المغطى من الفناء لتوفير الظل أثناء النهار ويشكل جزءاً انتقالياً بين خارج البيت وداخله .
- القباب والأقواس والزخارف والنقوش والخطوط ، وهي جميعاً تصميمات وظيفية وجمالية ، (شكل ٣) .
- المشربيات والرواشين والبراجيل والحشوات الصغيرة ولها أدوار وظيفية مناخية وزخرفية، وتأخذ أشكالاً مختلفة كالنوافذ الخشبية المنخفضة (دريشه) وسواتر الجص الجدارية (روشنة) وسواتر مزخرفة من الجص (نقشه) ، وتتميز المشربيات بنقوشها وزخارفها مما أعطاها قيمة جمالية .
- الملقف أو أبراج الرياح أو البادجيرات ، وهناك أربعة تصاميم تقليدية لهذه الأبراج[١١] ، وهي بحسب الأماكن التي توجد فيها :(أ) الملقف العربي - الإيراني، (ب) الملقف الإيراني ، (جـ) الملقف الباكستاني ، (د) الملقف المصري . وهذه البادجيرات تستخدم لضرورات مناخية حيث تُسهم في التقاط الهواء البارد وتوصيله إلى الفراغات المعمارية في داخل المسكن فتلطف من درجة الحرارة . (شكل رقم ٤) .

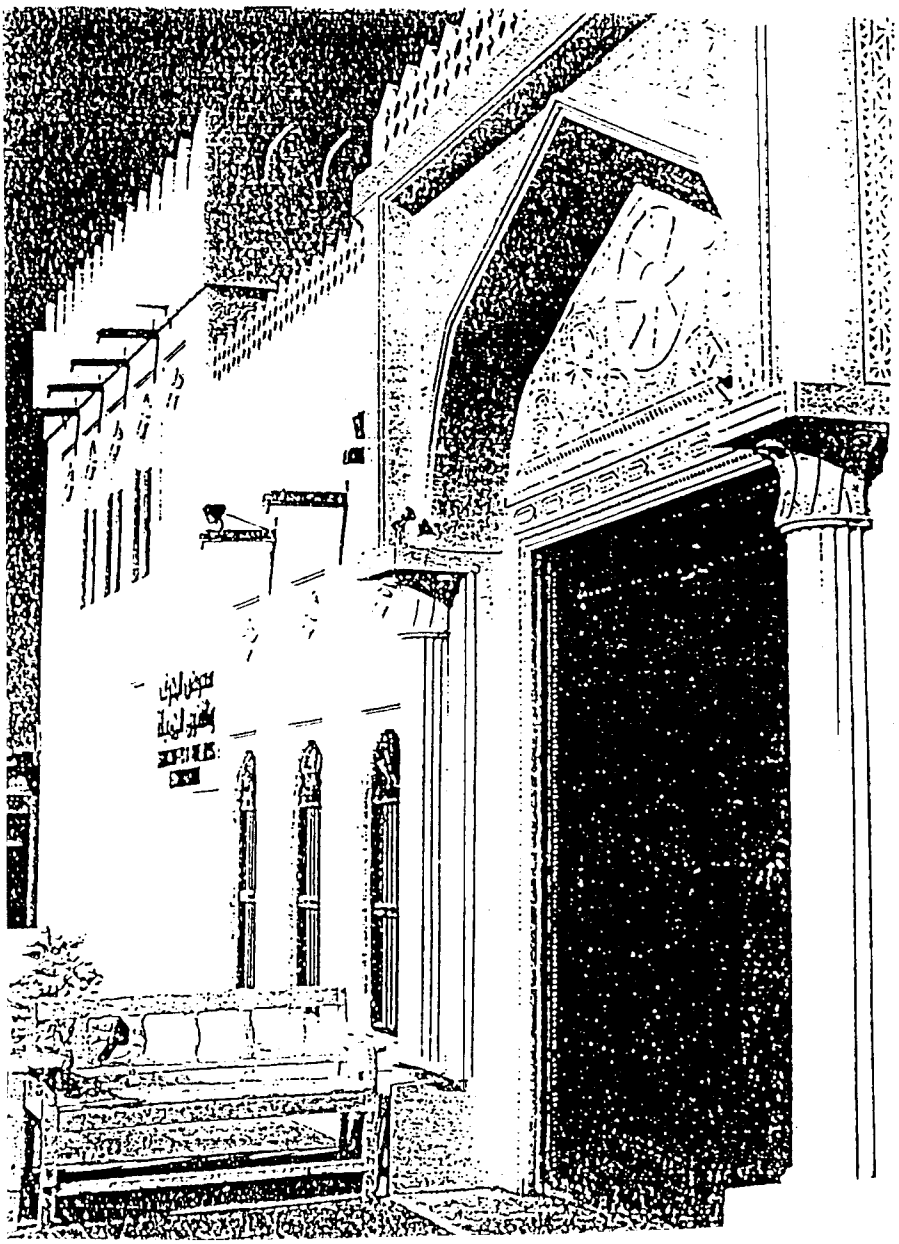

(شكل - ٣) معرض الحرف والفنون الجميلة

الدوحة - قطر

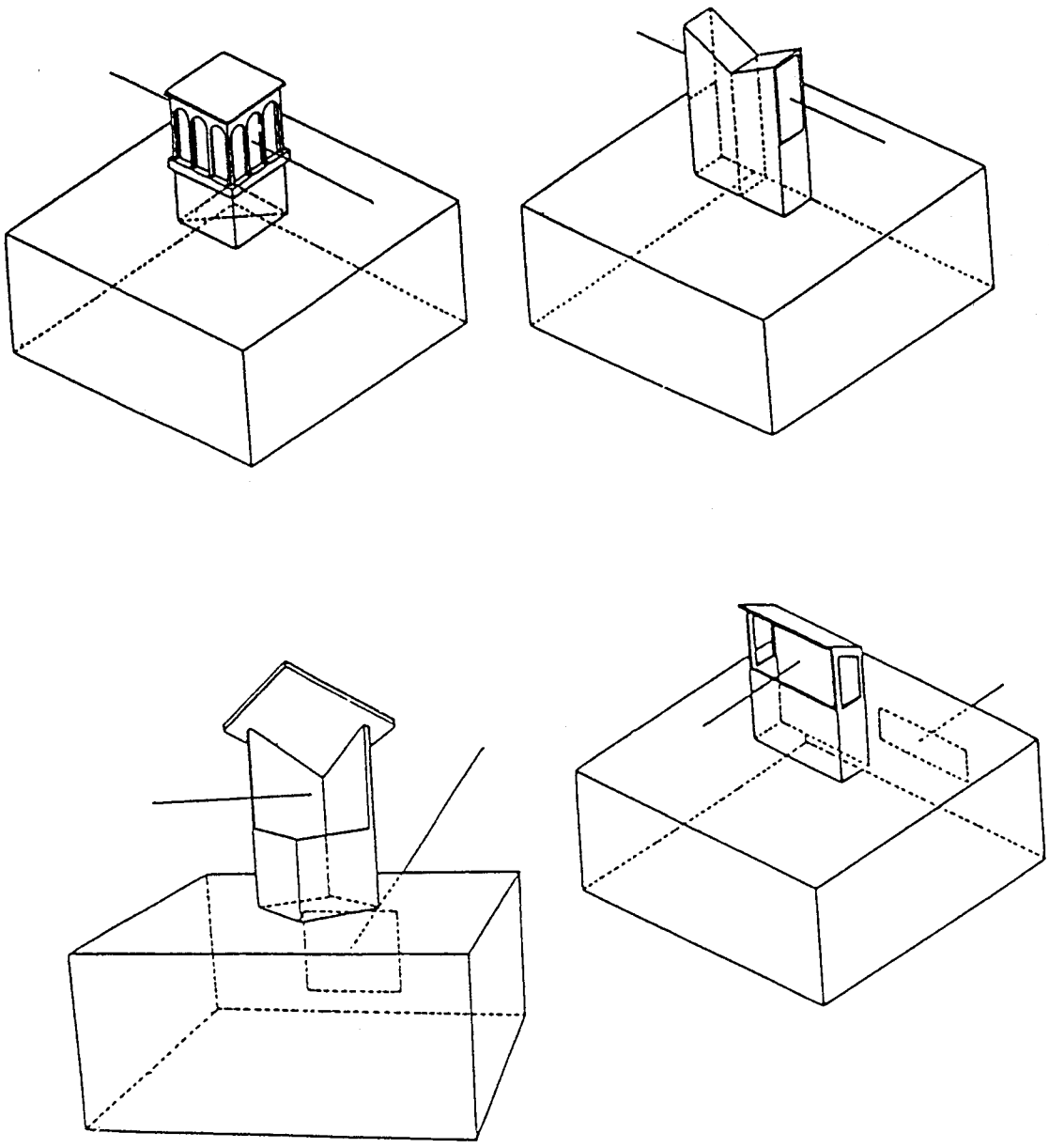

(شكل - ٤) منظور أيزومتري للأبراج القياسية

- النوافذ الزجاجية الزخرفية والعقود الدائرية والمسننه والشوابير على دراوي المباني (كما في سلطنة عمان) .
- الدراوي العالية (أسوار السطح) ذات الثقوب والبلكونات أو التراسات الخارجية (كما في البحرين) .
- المداخل المنكسرة غير المتقابلة لحفظ الخصوصية ، ولحجب الرؤيا عن أعين المارة ، كما أن الإنكسار كان لدوافع أمنية في حالة الدفاع عن المنازل من المعتدين .

وقد تأثرت ملامح وسمات ومعالم العمارة والعمران الأصيل التقليدي بمجموعة من العوامل الثابتة والمتغيرة [١٢] . فالبيئة الطبيعية هي من فئة العوامل الثابتة ، في حين أن البيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية هي عوامل متغيرة تختلف من فترة إلى أخرى . وفيما يأتي نذكر بإيجاز عن كل من هذه العوامل :

١ - العامل البيئي :

ويتكون من المناخ والتضاريس . فالحرارة العالية وأشعة الشمس الحارقة والجفاف في الصيف ، والرياح المترية والأمطار الشتوية الشحيحة والصحراء المنبسطة وقلة المواد الأولية التي تستخدم في البناء ، كلها ذات تأثير بالغ في تشكيل كتل البناء والنسيج العمراني والفراغات الخارجية والداخلية وتوجيهها وتحديد أساليب البناء فيها . وقد وعى المعماري والمخطط التقليدي هذه العوامل والمؤثرات وحاول تجاوز سلبياتها من خلال ما ابتكره من التصاميم والتشكيلات التي قللت من معوقات تلك الظواهر البيئية .

٢ - العامل الاجتماعي :

إن تاريخ العمارة هو تاريخ الأحداث الاجتماعية والاقتصادية . وكثيراً ما يُقال بأن «العمارة هي أوتوغراف الحالة الاجتماعية والاقتصادية» . فمن صورة العمارة يمكن استقراء الخصائص الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية لهذا المجتمع . وعموماً لقد استجابت العمارة التقليدية في المدينة الخليجية لعادات وتقاليد المجتمع باتخاذها أساليب معينة في التصميم والتشكيل الفراغي لمبانيها . وعلى مرّ العصور تطورت

العمارة التقليدية العربية - الإسلامية بناءً على ما أملته المجتمعات المتعاقبة من متطلبات من شأنها تقوية الروابط الاجتماعية والعلاقات الإنسانية . وتتلخص مثل هذه المتطلبات بمراعاة الجوار وحقوق الآخرين ، وتوفير الخصوصية ، وتقوية الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع ، وتوفير الأمان والراحة داخل البيت وفي الأحياء السكنية ، وتوفير فرص اللقاء بين الأفراد في الساحات العامة ، ومراعاة حجم الأسرة الكبير (الأسرة الممتدة المكونة من الأب والأم والأبناء وزوجاتهم وأولادهم) ، ومراعاة العادات والتقاليد .

٣ - العامل الاقتصادي :

تتأثر العمارة بشكل ملحوظ بمستوى دخل الفرد والازدهار الاقتصادي العام الذي يسود البلاد ، فكلما زاد دخل الفرد ، كلما شهدنا مسكناً أفضل ومرافق خدمية وإنتاجية أحسن واستخدامات وظيفية أعلى مستوى . كما تحرص الدولة على الإنفاق بسخاء على العمران للظهور بالمستوى اللائق بين الأمم . ويظهر القدر من الإنفاق على العمارة في الآتي : «السعة والرحابة في المنازل والمرافق الحيوية ، في الزخارف والنقوش الداخلية والخارجية ، وفي استخدام الأقواس والقباب والأقبية بكثرة ، وفي ارتفاعات المباني واستخدام مواد بناء ذات مظهر لائق وكفاءة في الأداء» .

٤ - العامل الديني :

مبدأ الخصوصية وفصل الرجال عن النساء والبساطة والزهد والنقاء والنظافة وحقوق الجار وإكرام الضيف واستضافته وعدم التطاول في البنيان (عدم رفع السقف أكثر من اللازم لما فيه من تباهي وتفاخر) وعدم الإسراف والتبذير ومراعاة اتجاه القبلة وتجاوب البيوت مع الروح الإسلامية ، كلها لها آثار مباشرة أو غير مباشرة على العمارة العربية - الإسلامية [١٣].

٥ - البيئة الثقافية :

من خلال دراسة الخلفية التاريخية للمجتمع يمكن إدراك الظروف الحضارية التي عاشتها مستوطناته البشرية ومدى ارتباطها عاطفياً وطبيعياً بهذه المستوطنات . إن

تشكيل التجمعات العمرانية لابد وأن ينسجم مع مقومات المجتمع على مر العصور . كما أن التطور العلمي والتقني أدى بدوره إلى تطور في نظريات العمارة ، حيث طغت العمارة المادية المصنعة على العمارة الإنسانية البيئية .

ثانياً ، واقع المدينة الخليجية المعاصرة

لقد طرأت على المنطقة العربية بعد الكشف عن النفط وإنتاجه وتصديره وتعاظم عائداته تغيرات جذرية - عمرانية واجتماعية واقتصادية وسياسية . وكان نصيب المستوطنات البشرية التقليدية من هذا التغيير عظيماً ومذهلاً . فقد تغيرت ملامحها ، وتضخمت أحجامها ، وتحول بعضها إلى حواضر كبرى ، كما عليه الحال في الكويت والدمام- الخبر - الظهران والدوحة والمنامة - المحرق وأبوظبي ودبي والشارقة والعين ومسقط - مطرح - روي . وقد نمت هذه الحواضر بسكانها ومساحاتها بنسب فلكية ، وقامت في أحيائها عمارات كبيرة وعالية وفيلات تقليدية وحديثة ، وانتشرت في أرجائها شوارع وطرق عريضة تستعملها مئات الألوف من السيارات . إنها حواضر معاصرة أخذت بكافة تطورات العصر وتقنياته وطرز عمارته وأنماط عمرانه . إنها إضافات جديدة على الأرض الخليجية .

وإذا ما تتبعنا التاريخ الحديث والمعاصر لهذه الإضافات من المستوطنات الجديدة وتفحصنا تشكيلاتها وهويتها ومصادر شواهدها لوجدنا بأن جذورها وطريقة نموها السريع وتعاظم أحجامها وغياب هويتها الخليجية وغرابة طرز عمارتها وخطط عمرانها إنما وفدت للمنطقة استجابة لموجات من التغيير طرأت على المنطقة فنالت من مدنها وعمرانها وعمارتها مما أوصلها إلى ماهي عليه من فقدان الهوية والشخصية الخليجية . ويعود هذا التغيير السريع في المدن والمستوطنات البشرية الأخرى إلى ما يأتي :

١ - الاستعمار ومخلفاته وتبعاته في توفير الأجواء لهجمة معاصرة غريبة في التخطيط والعمارة.

٢ - عائدات النفط والغاز ونتائجها الاقتصادية ودورها في تطوير البنى الأساسية وخطط التنمية الشاملة .

٣ - إدخال التقنيات الصناعية المتطورة في الحياة الاقتصادية وما رافق ذلك من تحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية والإدارية والسياسية.

٤ - الهجرة الداخلية الواسعة من الريف والبادية إلى المدن ومناطق الإنتاج.

٥ - تدفق العمالة العربية والأجنبية بعد الطفرة التنموية الكبرى في دول الخليج العربية منذ السبعينيات من هذا القرن بحيث أخذت هذه الموجات الوافدة تشكل نسباً عالية من إجمالي سكان هذه الدول . فقد بلغت نسبتها في الإمارات العربية المتحدة ما يقرب من ٨٠٪ من إجمالي السكان ، وانها شكلت ما يقرب من ٧٥٪ في قطر و ٦٠٪في الكويت وحوالي ٤٠ - ٥٠٪ في كل من البحرين وسلطنة عُمان ، ويوجد ما يقرب من ٦ ملايين وافد في المملكة العربية السعودية .

٦ - التنمية العمرانية السريعة التي شهدتها المنطقة خلال الثلاثين سنة الماضية لم تعط أية فرصة لدراسة الأوضاع القائمة وإعادة النظر في إطارها العام.

٧ - ان منطقة الخليج كانت ومازالت تعاني من إشكالية النقص في الكوادر الفنية المحلية للإسهام في عملية التخطيط والإعمار السريعة التي شهدتها المنطقة منذ السبعينيات . إن ذلك قد أدى إلى الاستعانة بالخبرات العربية والأجنبية التي مثلت العديد من مدارس التخطيط والعمارة العالمية . ورغم كفاءة مثل هذه الخبرات ، فهي غريبة لم تعش الواقع الخليجي ، ولم تتفهم خصائصه تفهماً وافياً وعميقاً ، الأمر الذي جعلها تطبق في تصاميمها وتخطيطاتها نظريات وتقنيات لا تمت بصلة إلى طبيعة الاستقرار البشري المحلي ، ولا تمت إلى الظروف الخليجية الحضارية والبيئية بصلة . وقد تكون هذه الطرز المعمارية والأنماط التخطيطية التي جاءوا بها نقية وأصيلة في مواقعها ، إلا أنها ليست كذلك في البيئة والمجتمع الخليجي.

٨ - الافتقار إلى التوعية في مجالات التخطيط والعمارة بقصد تطوير الحس والذوق العمراني والمعماري لدى كافة طبقات المجتمع الخليجي وتوضيح مفاهيم الجمال المعماري ومزايا العمارة المحلية وملاءمتها لمباني المنطقة واستجاباتها لمعطيات البيئة والمجتمع [١٤].

٩ - السياسات السابقة الهادفة إلى هدم وإزالة معظم المباني والشواخص القديمة التي كان وجودها يساعد في خلق فرص للحفاظ على عناصر التراث المعماري العريق .

ونتيجة لما سبق من عوامل أصبحت المدينة الخليجية مزيجاً من نماذج حضارية وثقافية متباينة تتعايش جنباً إلى جنب دون ارتباط أو تنسيق . فعلى مقربة من التصاميم والعمارة والمباني الغريبة الدخيلة المنقولة من البيئات الأجنبية ، تنتشر بقايا شواهد وشواخص موروثة من الماضي القريب أو البعيد ، وترمز إلى الإرث التقليدي والتراث التاريخي والأصالة العربية الإسلامية . ويبدو واضحاً أن المدينة الخليجية ، كالمجتمع الخليجي ، يعاني من ازدواجية اجتماعية وثقافية وحضارية . ففيها نمط عصري يرتبط ارتباطاً تبعياً ومصيرياً بالنموذج الغربي ، وفيها إلى جنب ذلك نمط تقليدي أو أصيل ، وهو استمرار للنموذج التراثي في صورته المحافظة (شكل ٥) .

وخلاصة القول ان المدينة الخليجية قد اتجهت في عمرانها وسكانها خلال النصف الأخير من هذا القرن اتجاهاً لا عربياً ولا إسلامياً ولا خليجياً . فقد فقدت هذه المدينة هويتها التراثية الأصيلة في مبانيها وخططها ومورفولوجيتها وسكانها . فهي قد ابتعدت عن بيئتها الطبيعية والحضارية والديموغرافية ، وأصبحت لا تلبي الأحاسيس الإنسانية للإنسان الخليجي العربي المسلم ولا تستجيب لها ، رغم أنها هي وعاؤه . وكان من المفروض على هذا الوعاء أن يستلهم شكله ويكيف نفسه لمتطلبات هذا الإنسان . فالمتجول في المدينة الخليجية الكبيرة اليوم لايشعر بالإحساس والانتماء الذي كان يراوده في كنف المدن والأحياء القديمة حين كان يسير وسط عالم يبادله المشاعر ويشاطره الخواطر. إنه اليوم يشعر وسط هذه المباني الغريبة والشوارع العريضة، وفي خضم هذه الزخم الكبير من البش من مختلف الأجناس والألوان والمذاهب والأديان والقوميات واللغات بأنه في ضياع تام . إنه وسط محيط هادر يتحرك الكل فيه بطرق ميكانيكية ، وينتقل بأساليب ميكانيكية، ويأكل ويلعب بأدوات تعمل ميكانيكياً وتكرس الفردية والانعزال . لقد فقد الإنسان فيها إنسانيته ، وفقد شعوره بالارتباط والانتماء . فمباني وعمارة المدينة الخليجية خليط غير متجانس ، وكذا البشر ، وكل يظهر بطراز خاص ويتكلم بلغة خاصة، حتى كان مجموع هذه الطرز وتلك اللغات فوضى بكل معانيها . إن هذه المدن تمر الآن بفترة انتقالية سريعة تتصف بأزمة هوية مورفولوجية ، وبغربة سكانية [١٥] .

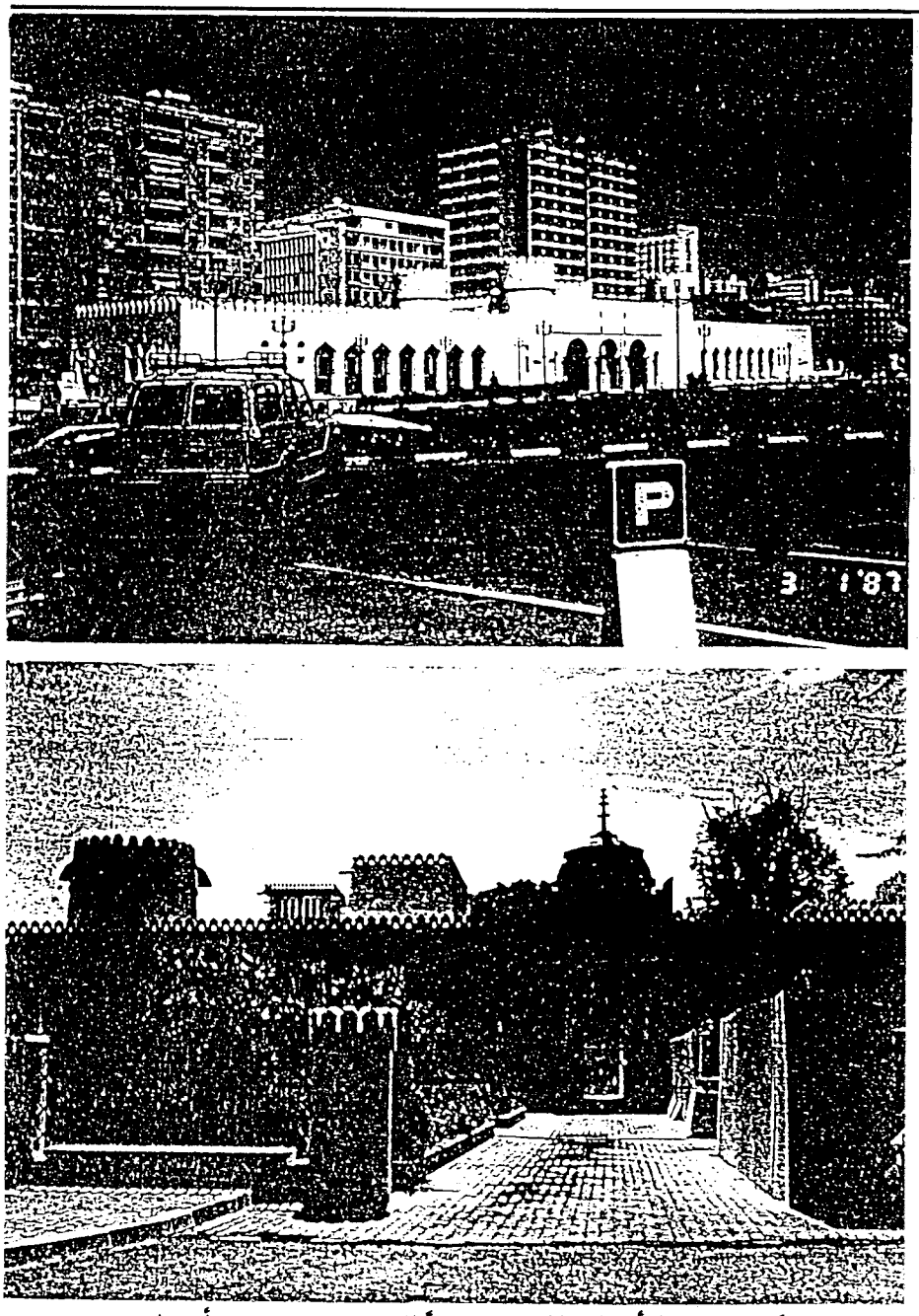

(شكل - ٥) الأصالة والمعاصرة جنباً إلى جنب في مدينة أبو ظبي

ثالثاً : أزمة الهوية في المدينة الخليجية

شهدت المدينة الخليجية في تاريخها المعاصر نهضة عمرانية ومعمارية واقتصادية وثقافية فاقت جميع التصورات والإسقاطات . ورغم أنه ليس هناك من يرفض هذه النهضة العصرية وموجة التحديث ، إلا أن مثل هذه التنمية الحضرية الإندفاعية في غياب تخطيط سليم قد أدى بها إلى الاإحراف عن الأهداف الوطنية والقومية العليا التي نادى بها رواد الأصالة وحماة التراث في عدم قطع الجسور بين الماضي التليد والحاضر السعيد . ولكن رغم ذلك فقد عملت المعاول والجرافات على إزالة كثير من الشواهد والشواخص التراثية ، لا لسبب سوى تعارضها مع التوسع العمراني أو العمل بما استجد من خطط عمرانية اقتضت تغييرات في شبكة الطرق وسعتها واستخدامات الأرض التي تطل عليها ، أو بسبب قدم هذه الشواهد والشواخص والشعور بالخجل والاشمئزاز من منظرها القديم المتهري الناتج عن إهمال صيانتها . لقد غاب عن الكثيرين أن الحفاظ على تراث البلد وملامح حضارته وتاريخه هي من الوسائل الثقافية والاجتماعية والنفسية التي تربط الإنسان والمجتمع الخليجي بالمنطقة وبأرضها وتاريخها وحضارتها التي مرت بسلسلة متواصلة من التطور حتى وصلت إلى الحاضر .

إن هذا الغزو الحضاري والثقافي الذي دخل المنطقة الخليجية عن طريق التخطيط العمراني والعمارة قد خلق بيئة جديدة لم تألفها المنطقة من قبل . فقد ساهم الخبراء الأجانب وكذلك المحليون من مخططين ومعماريين ومهندسين الذين درسوا في الغرب أو تأثروا به أو عن طريق دراساتهم الجامعية العربية التي تأثرت بقواعد العمارة والتخطيط الغربي في نقل طرز العمارة وأنماط التخطيط في الخارج إلى المدينة الخليجية باسم «المعاصرة» . فاهتموا بالمظهر لا بالجوهر ، وتناسوا أنهم يصممون ويبنون لإنسان خليجي عربي مسلم وأهملوا مقومات التخطيط والعمارة التي تستند على العلاقة بين البناء والإنسان ، وبين البناء والفراغ الذي يحيط به ، وبين البناء والبيئة . ومن الملاحظ أن هذه المباني الدخيلة لاترتبط بماض ولا تعكس حاضراً ولا ينتظرها مستقبل . إنها فرضت على الموقع فرضاً حتى رفضت ما حولها وتنافرت معه . إنها غريبة ودخيلة على سكانها ولا تتآلف معهم ، وفقد الناس بوجودها مشاعر الألفة والاستئناس [١٦] .

وهنا لابد من الاستشهاد بما قاله جوستاف بتول رئيس إحدى لجان الأمم المتحدة ، ونقلها عنه المعماري العربي الشهير حسن فتحي حيث قال :

«قديماً كان الاغتراب الثقافي والحضاري يفرض من قِبَل الحكام . وهذا ما قام به فعلاً الامبراطور الإسكندر في روسيا ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا . أو أنه يفرض بالقوة من قِبَل الاحتلال الأجنبي . ولكن اليوم تحولت الظاهرة إلى مايمكن تسميته - بالاستعمار الذاتي - ، عندما تبدأ أمة بتقليد أمة أخرى برغبتها ، وليس بقوة الحكام ، ولا بقوة الاحتلال . وهذا ما تشهده دول العالم الثالث والتي تسعى إلى تغيير لون جلودها معمارياً وحضارياً وثقافياً ، وذلك بتغيير ملامح حضارتها وثقافتها . وهذه بلاشك نكبة كبيرة وتؤثر تأثيراً مدمراً على الشخصية المحلية ، وعلى نضوب ينابيع الإبداع في هذه الدول ... » .

إلا أن ذلك كله لايعني عدم وجود محاولات جادة ظهرت في مراحل زمنية مختلفة منذ بداية الحركة العمرانية السريعة إلى وقتنا الحاضر تدعو إلى إقامة أعداد كبيرة من المباني والمرافق العامة والخاصة يراعى في تخطيطها خصائص الظروف المحلية البيئية والحضارية وتفي بمتطلباتها الوظيفية وتنسجم مع ما يحيط بها . إنها نوع من المباني والمرافق التوفيقية التي أخذت بالاتجاهين الأصيل والمعاصر .

رابعاً : صيغة الحل
لإشكالية الأصالة والمعاصرة

يقول شيخ المعماريين العرب الأستاذ حسن فتحي رحمه الله : «إني لا أعترض على العمارة الفرنجية ، بل أراها تناسب أهلها ، ولا تناسبنا . فهناك متبادلات ثقافية وحضارية بين الثقافات والحضارات المختلفة ، وهناك ما لايقبل التبادل . والعمارة ليست من هذه التبادلات . فلايمكن أن تأخذ عمارة أجنبية ، غربية أو شرقية ، وتزرعها في بلاد عربية إسلامية ، دون مراعاة للعادات وظروف البيئة والوضع الاقتصادي والاجتماعي» .

وباختصار فإن ما يقصده هذا المعماري المسلم أن العمارة المحلية يجب أن تستمد تشكيلها وبنيتها بقدر الإمكان من خصائص المنطقة التي هي فيها . ويمكن تشخيص هذه الخصائص بثلاث مجموعات هي :(١) مجموعة الخصائص الجغرافية الطبيعية ؛(٢) مجموعة الخصائص الفلسفية والنفسية ؛(٣) مجموعة الخصائص البيئية الحضارية والثقافية[١٧]. إن هذه المجموعات الثلاث هي التي ينبغي أن تكون مصدر الإيحاء لبناء وتشكيل ونمو العمارة والمدينة الخليجية .

ولكن كثيراً ما يطغى نمط حياتي جديد تحت غطاء من بيئة محلية . فالتقنية تجلب معها تغييرات حضارية وحياتية للمناطق التي تتعامل معها . فالسيارة مثلاً أصبحت مسؤولة عن النمط الجديد في تخطيط وتنمية المدينة ، وأدت إلى تغريب الحياة الحضرية . كما أن وحدات التكييف الحراري قد غيّرت جملة المفاهيم الأساسية في تصميم البيوت والعمارات . ففناء الحوش قد يستبدل بصالون مركزي مغلق بدون فتحات أو شبابيك . حينئذ قد لايكون للضوابط المناخية تأثيرات على تصاميم المباني . كما أن دخول التلفاز إلى صالون العائلة قد لايقتصر تأثيره على تغيير ترتيب أثاث البيت ، بل وكذلك يؤثر في العلاقات الهايراركية للأفراد الجالسين حوله . عندئذ ينفقد التمايز بين أفراد العائلة كباراً وصغاراً ويصبح الحديث يدور حول أي القنوات هي الأفضل بدلاً من الحديث عن أحداث العالم اليومية ومشاكله الاقتصادية والاجتماعية . فالحياة قد تغيرت ولابد أن تجلب معها تغييرات في النظام الحضري وخطط المدن وتصاميم المباني والغرف والأثاث والملابس وفي علاقات الأفراد فيما بينهم ضمن الجماعة البشرية الواحدة .

لقد انبهرنا بالتقدم العلمي والتقني والفني والمعماري الذي طرحته الحضارة الغربية . ولم يكن بإمكاننا مقاومة النزعات الجمالية التي أتت بها العمارة المعاصرة والتخطيط الحضري المتطور ، خاصة وأننا من الشعوب التي تنبهر بالأجنبي مهما كان مستواه . فلما جاءتنا عمارة الغرب من أوروبا وأمريكا اعتبرناها تقدماً مابعده تقدم ، فأخذنا بها وبكافة تفصيلاتها وتوابعها دون مراعاة لوضع اجتماعى أو اقتصادي أو حضاري أو بيئي أو غير ذلك ، ودون أن نلتفت إلى تراث أو تاريخ . فكلنا مسؤولون عما حدث ، وليس في

قضيتنا هذه جريمة أو ذنب . لقد دخلت الطرز الغربية الأوربية - الأمريكية إلى المنطقة الخليجية بأشكال وأساليب وطرق مختلفة ودون مقاومة تذكر . إنها قد وجدت من فتح لها المجال عن طريق :

١ - برامج التعليم المعماري والهندسي ومناهج التخطيط في الجامعات الخليجية والعربية التي اتجهت نحو قواعد العمارة والتخطيط العمراني الغربي فأثرت في مناهج التصميم والتخطيط ونظريات العمارة فيها ، بينما أهملت برامج العمارة والتخطيط العربي - الإسلامي .

٢ - اعتمدت المدينة الخليجية في خططها ومبانيها على تصاميم وخطط قام بها مخططون أو معماريون أو مهندسون درسوا في الغرب وتأثروا بالطابع الغربي في تعليمهم المعماري والهندسي ، بينما تجاهلوا كلياً أو جزئياً قواعد العمارة والتخطيط في التراث العربي الإسلامي .

٣ - هناك اتجاه بين غالبية المعماريين والمخططين في عدم الثقة بالتراث المعماري العربي الإسلامي ، واتهامه بعدم مجاراة متطلبات العصر الحديث .

ولكن لابد من التذكير بأن الموروثات العربية الإسلامية تمثل ترجمة للرغبات الإنسانية الخليجية في فترة نشأتها ووجودها ، وأنه يتعين أن لا تنبذ مثل هذه الموروثات وتهمل بمجرد أنها أصبحت موروثات قديمة . وعليه فإنه ليس صواباً أن تهدم التراكمات التراثية ولا يقام بدلها مالم تكن عاجزة كلياً عن التغيير وسد المتطلبات الجديدة . فليس كل جديد مفيد ، وليس كل قديم بال . فالكثير من الموروث ذو أصالة وقيمة ، وأن هذه الأصالة لاتشترى بإضافة الزخارف على الدخيل . فلايجوز النقل الأعمى من حضارة إلى أخرى .

وهناك أمر حيوي آخر يجب أن لانغفله وهو أنه قد تبين للمسؤولين والمخططين ، وبعد تجارب ودراسات وتطبيقات ، أن التخطيط العمراني والمعماري هو عملية شمولية وليست جزئية . وعليه ينبغي على المخطط أن يتعامل مع جوهر الإنسان بقدر ما يتعامل

مع عناصره المادية . ومن هنا كان المنطلق الجديد نحو توفير كوادر للتخطيط من تخصصات عديدة هندسية ومعمارية وجغرافية وإنسانية واجتماعية واقتصادية وإدارية ونفسية للعمل في الأجهزة التخطيطية ، ليتسنى لها جميعاً المساهمة في حل كثير من الإشكالات التخطيطية والمعمارية والأزمات المستعصية في المتسوطنات البشرية . إنها معالجات جديدة تحتاجها المدينة الخليجية قبل غيرها لأنها تمتد بجذورها عميقاً في التاريخ والاجتماع والاقتصاد والبيئة .

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا الفيض من الملاحظات هو كيفية تأمين بقاء الشخصية العربية - الإسلامية وأصالة مقوماتها الحضارية في المدينة الخليجية ؟ وماهو السبيل الأمثل للتعامل مع معطيات المعاصرة وإيجابياتها ؟ إنها أسئلة في غاية الأهمية ، ولكنها في ذات الوقت من أسئلة السهل الممتنع. ومن الممكن بهذه المناسبة أن نستشهد بما قاله الدكتور محمد مكية حيث يدعو ويجاهر «بأهمية تكوين مدرسة فكرية تقود المخططين والمهندسين إلى الاهتمام بالجانبين المعنوي والملموس في المدينة الخليجية . مدرسة أصيلة تستقي مقوماتها الحضارية من الواقع والماضي والتراث الفكري ، وتحدد اتجاهات تقدمية قادرة على مجابهة حاجة الغد من واقع اليوم ، مع تأمين الاستمرارية الحضارية المطلوبة . والفكر الإسلامي هو المغذي الأول لهذه المدرسة . فافكار الوحدة والمساواة وعدم الإسراف وكراهية التبذير والتواضع ورفض عبادة الأصنام ، كلها تمثل جوهر القيم الأخلاقية التي يجب ترجمتها لواقع بيئتنا العمرانية [١٨] . إن هذا النداء لمدرسة فكرية جديدة تحمي التراث العربي - الإسلامي وتجدده يجب أن يترجم إلى حيز الواقع استناداً إلى استراتيجية ذات محورين :

المحور الأول : عملية دفاعية لإيقاف الدمار اللاحق بمدننا نتيجة النزف التخريبي .

المحور الثاني : يؤكد على البدء في تكوين برامج دراسية جديدة للمعماريين والمخططين تتمشى مع ماضينا وحاضرنا وما نتمناه لمستقبلنا .

الخلاصـــة

ليكن معروفاً أن الأصالة التي ندعو إليها هي ليست الانحصار في التراث وحده ، والعبودية له ، وليست التقوقع والتجمد عند الماضي ، ولكنها تتبنى قيمه والتجديد الدائم فيه . كما أن المعاصرة ليست في تبني القيم الغربية والأخذ بالتقنيات المعاصرة والتخلي عن الماضي كله . إنها ليست تجديداً محضاً ، وتبنياً لمعطيات الغرب وذوباناً فيه ، واغتراباً عن الدين والنزعة القومية ، ولكنها إدخال للعصر في الذات العربية الإسلامية ، وفهم له من خلالها [١٩] . وعلى هذا فإن الأصالة والمعاصرة لاتتناقضان إطلاقاً ، لأن كلا منهما تنبع من منبع مختلف، ولها هدف مختلف . والفرق الوحيد بينهما «أن الأصالة تثبت الذاتية الخاصة ، بينما المعاصرة تفرض الاتجاه» [٢٠] . وافتراض الانخلاع الكامل من الذات فرضية خاطئة تماماً . ولهذا فإنه لاخيار لنا في الأخذ بالنموذج الغربي أو الأخذ بالنموذج التراثي . فالواقع العملي يقضى جمع الخيارين ، لأن البنى التي يقوم عليها النموذج الغربي في الحياة وفي الثقافة قد انزرعت ضمن الواقع التراثي الذي نعيشه ، وفي صميمه ، وأوجدت علاقة ضرورية ، وخليطاً ثقافياً ثنائياً جديداً يتبلور باستمرار مع توالي الأيام ليصبح تركيباً جديداً .فنحن نقبل الغرب ثقافة وفكراً وابتكاراً وعلماً وتقنياً، ونرفضه عدواناً واستعماراً وتبعية واستغلالاً وتذويباً للهوية الحضارية . في الوقت الذي نقبل في التراث عنصر إبداع وتوجيه ، ومنزع إيمان وقوة ، ونرفضه جموداً ، وقواقع للاحتماء والهروب[٢١].

وإذا كان لابد من وضع نهاية لهذا البحث ، فإن الواقع الذي فيه المدينة الخليجية حالياً يقتضي منا السعي نحو تهيئة الأجواء المناسبة نحو تخطيط وعمارة بيئية خليجية تأخذ بالأصالة والمعاصرة معاً . ومن الأمور التي ينبغي أن يؤخذ بها لهذا الغرض ما يأتي :

١ - إعادة صياغة برامج التخطيط والهندسة المعمارية في جامعات الدول العربية والإسلامية بشكل يسمح ببحث وتطوير مكونات التراث العمراني والمعماري والإنساني في المنطقة العربية الخليجية .

٢ - تشجيع أعمال البحث والتنقيب عن عمارة معاصرة تجاري الموقف العلمي للتراث ، وهذا معناه أن يفهم المعماري والمخطط مضامين وأهداف ومسببات وغايات هذا التراث ويعالج قضاياه بروح العصر .

٣ - الإفادة القصوى من المواد والخامات المحلية والهبات الطبيعية وطرق تحسين أدائها ، وذلك عن طريق :

(أ) توجيه التكوين العمراني والمعماري بما يناسب الظروف المحيطة من حيث الرياح والحرارة وأشعة الشمس والرطوبة والتساقط وغيرها من مكونات المناخ وعناصره الأساسية .

(ب) تأمين التوجه المناسب للوظائف والاستخدامات الأرضية المختلفة ضمن التجمعات العمرانية الكبيرة .

(جـ) التشجيع على إجراء دراسات وأبحاث علمية وميدانية عن البيئةوالعمارة وعن مشاكلها وأمراضها وطرق معالجتها .

(د) توسيع الرقعة الخضراء ، وإظهار الطابع الفني والجمالي والتراثي في المباني العامة والخاصة .

(هـ) اعتماد التكييف البيئي عوضاً عن التكييف الصناعي وذلك من خلال تطوير أجزاء المباني وعناصرها الأساسية .

٤ - السعي نحو تخطيط وتنمية مرنة وقابلة للتجديد ، وتكون في نفس الوقت محافظة على تقاليدها تحت ظل ظروف مجتمع خليجي اختباري متحول .

٥ - النظر إلى أن للتقليد وظيفة أساسية في بناء مجتمع منظم وخلاق وهو قادر على العطاء ويستحوذ على معايير حقيقية يمكن من خلالها إعداد برامج وخطط المستقبل . فالتقليد يمكن له أن يعمل كمنسق اجتماعي ، كما يمكن بواسطته أن نختار الأفضل للمستقبل .

مصادر البحث

(١) عبد الباقي إبراهيم ، (١٩٩٤) ، «الأصالة والمعاصرة في العمارة الإسلامية» ، في كتاب - الجوائز المعمارية : وثائق ومنجزات ، الدوحة - دولة قطر ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) حسن الخياط (١٩٨٨) ، المدينة العربية الخليجية ، (مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر ، الدوحة() ، ص ٤٠ .

(٣) محمد عابد الجابري ، (١٩٨٤) ، «إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر: صراع طبقي أو مشكل ثقافي» ، (مجلة المستقبل العربي - ٦٩ - نوفمبر ١٩٨٤) ، ص ٥٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

(٥) حسن الخياط ، مصدر سابق ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٦) محمد جاسم الخليفي ، (١٩٩٠) ، العمارة التقليدية في قطر ، (إدارة السياحة والآثار ، الدوحة- قطر) ، ص ٢٩ .

(٧) سابا شبر ، ١٩٦٣ ، العلم وتنظيم المدن العربية ، (بلدية الكويت - الكويت) ، ص ٣٧ .

(٨) أسامه إبراهيم الدعيج ، (١٩٩٤) ، «دراسة وتحليل للوضع المعماري في الكويت» في مجلد - دراسات وأبحاث ندورة الحفاظ على التراث العمراني الخليجي المميز التي عقدت في الدوحة - قطر في الفترة ١ - ٣ أكتوبر ١٩٩٤ ، ص ٣٥٩ - ٣٧٥ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .

(١٠) خالص الأشعب ، (١٩٨٢) ، المدينة العربية ، (معهد البحوث والدراسات الإسلامية ببغداد - قسم البحوث والدراسات الجغرافية) ، ص ٣٤ .

(١١) Al - Megren, K. A., "Wind Catchers For Passive Ventilation Cooling in Hot Humid Regions", in (ASHRAEF & E., Conference On Air - Conditioning in Hot Climates, Oct. 1989), pp. 27 - 31.

(١٢) موفق اصباشي ، «العمارة والبيئة في الخليج العربي» ، (من المجلد الخاص بندوة الحفاظ على التراث العمراني المميز التي عقدت في الدوحة - قطر في الفترة ١ - ٣ أكتوبر ، ١٩٩٤) ، ص٥٤٠ .

(١٣) عبد القادر حمزه كوجك ، «المنهج الإسلامي في تصميم العمارة» من المجلد الخاص بندوة الحفاظ- مصدر سابق ، ص ٩٤ - ٩٨ .

(١٤) عبد الحميد أحمد البس وجميل بن محمد السلفي ، «السمات والملاح المعمارية والتخطيطية المشتركة في دول مجلس التعاون الخليجي وطرق المحافظة عليها » ، في المجلد الخاص بندوة الحفاظ على التراث العمراني الخليجي المميز التي عقدت في الدوحة - قطر ، مصدر سابق ، ص٤٤ .

(١٥) حسن الخياط ، مصدر سابق ، ص ٣٧٨ - ٣٨٠ .

(١٦) أسامة إبراهيم الدعيج ، مصدر سابق ، ص ٣٥٩ - ٣٧٥ .

(١٧) عبد الباقي إبراهيم ،)١٩٦٨) ، التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة ، (الكويت ، بلدية الكويت) ، ص٤٣ .

(١٨) محمد مكية ، «نحو مدرسة فكرية جديدة للعمارة والتخطيط في العالم العربي» ، من أبحاث ندوة المدينة العربية- خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي - التي عقدت في المدينة المنورة عام ١٩٨١) ، ص ١٢٤ .

(١٩) حسن الخياط ، مصدر سابق ، ص ٣٥٦ .

(٢٠) نفس المصدر ، ص ٣٥٦ .

(٢١) الخطة الشاملة للثقافة العربية بين المهد واللحد (٧) : الموقف من الأصالة والمعاصرة ، ص ١٠٦ .